

تفسير ابن كثير

قيل : نزلت في اليهود إذ أشاروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسكنى الشام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة بعد ذلك وقيل : إنها نزلت بتبوك وفي صحته نظر روى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي عن يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقالوا : يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء فصدق ما قالوا فغزا تبوك لا يريد إلا الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت السورة { وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلاً * سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنننا تحويلاً } فأمره الله بالرجوع إلى المدينة وقال : فيها محياك ومماتك ومنه تبعث وفي هذا الإسناد نظر والأظهر أن هذا ليس بصحيح فإن النبي لم يغز تبوك عن قول اليهود وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار } ولقوله تعالى : { قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون } وغزاها ليقتصم وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه والله أعلم ولو صح هذا لحمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم عن عفير بن معدان عن سليم بن عامر عن أبي أمامة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أنزل القرآن في ثلاثة أماكن : مكة والمدينة والشام] قال الوليد : يعني بيت المقدس وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد إنه بيت المقدس والله أعلم وقيل نزلت في كفار قريش هموا بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفروه بهم فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم ولهذا قال تعالى : { سنة من قد أرسلنا } الآية أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتهم العذاب ولولا أنه صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة لجاههم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به ولهذا قال تعالى : { وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم } الآية